سلسلة: علماء الإسلام وملحمتهم التقويمية عبر التاريخ

مقدمات نحو صياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

(9) صناعة الفقه: المقاصد الشرعية والسياسية عند علال الفاسي

الحلقة الأولى

مقدمة

جاء **محمد علال الفاسي** (1326 هـ/1908 م – 1394 هـ/ 1974) خريج **جامع القرويين** ، والزعيم السياسي المخضرم العصامي التكوين، كصنوه ومعاصره المغاربي الشيخ التونسي خريج **جامع الزيتونه** **محمد الطاهر بن عاشور** (1296 هـ/1879 م – 1379 هـ/1973 م)[1] على موعد مع التاريخ، وعلى فترة من الفقهاء التأصيليين، والعلماء التقويميين المغاربيين الكبار من منشئي الدول والمذاهب، الذين تطايرت بمؤلفاتهم وبمآثرهم الركبان شرقاً وغرباً في زمانهم.

فقد أطل الرجلان معاً على العصر والفقه مكسور الجناح ودولهما خاضعة للاستعمار الفرنسي، وفي أمس حاجة إلى إعادة وصل ما انقطع من حبل ذلك الوشاج التاريخي القديم الذي

[1] أنظر كتابنا ضمن هذه السلسلة: (8) صناعة الفقه: التقويمات المقاصدية عند محمد بن الطاهر بن عاشور

ظل يربط بين القطرين القطبين: القيروان والقرويين، كرجع صدى إحيائي مستأنف، بعد أن انمحت آثار تلك الدول التي صنعت عظمة المنطقة وتاريخها من مرابطين وموحدين ومرينيين، وانقطع الآن حسهم وركزهم من التاريخ، كما اندرست علوم من تخرجوا من نبغائهم من الجامعتين وهجرت مؤلفاتهم، حتى لم يبق لأعمالهم جميعاً ولا لمآثرهم من وجود، سواء كأفكار، أو كصروح عمرانية، سوى ما تلتقطه العين مبعثراً هنا وهناك، كحب سبحة بعد أن انفرط عقدها، في صروح متآكلة خلفوها من ورائهم ومنشئات معطلة عن وظائفها الأصلية، ظلت تُقاوم عوادي الزمان والتعرية، كأن لم يغنوا فيها بالأمس البعيد أو القريب، بعد أن طوى أصحابها النسيان، أو مختزلاً في بطون كتب المؤرخين والمترجمين وأصحاب السير كنوادر ومستملحات، مما كان يملأ به طلبة الجامعتين، قبل عصر الحاسوب، أوقات فراغهم، وها قد مر على أفول نجم آخرهم وهو: الإمام التقويمي أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي (ت: 790 هـ/1388 م)[2] صاحب "الموافقات"، أزيد من خمسمائة عام.

[2] أنظر كتابنا ضمن هذه السلسلة: "(7) صناعة الفقه: التقويمية المقاصدية عند الشاطبي"

العوامل المشكلة لذهنية علال الفاسي

1.1) عامل التنشئة والتبيئة في حياة علال

ولد علال الفاسي في الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة 1327 هـ، الموافق للعشر من يناير 1910م بمدينة فاس في عهد السلطان السلفي **المولى عبد الحفيظ** (1908 – 1912) ، وهي الفترة القلقة التي سبقت فرض الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912 م.

ينحدر علال من عائلة **الفهريين** الذين فروا بدينهم من الأندلس أيام محاكم التفتيش الكنسية السيئة السمعة والذكر. وقد اشتهرت العائلة بالعلم وأنجبت منذ استقرارها بفاس فقهاء وعلماء وقضاة بارزين، كان آخرهم وإلى **عهد علال**، والده نفسه: **عبد الواحد بن عبد السلام بن علال الفهري**: الخطيب، والكاتب، والمدرس، والمفتي.

وحظي علال، بصفته الابن الذكر الوحيد الذي رزقت به العائلة، بعناية خاصة من طرف الوالد، حيث سيوفر له الكثير من المحفزات المادية والمعنوية التي ستكون له زاداً وعصمة خلال مشواره العلمي والسياسي الكثير التقلبات والمنعرجات والفتن والمفاجآت والإحن.

دخل الكتاب على معهود عصره، وبدأ الوالد يأخذه معه إلى حلق جـــامع القرويين المفتوحة سنة 1338 هـــ/1919 م ولما يناهز بعد سن الرشد، فحضر دروســاً فـــي الفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو، ...إلخ.

وكان لرعاية الوالد وعينه الساهرة، دور المحفز والمشجع في تحبيـــب تلـــك المـــواد الصمّاء والجرداء التي كانت تلقى برحاب القرويين في غفلة من الزمان وأهله. فهو الذي كـــان يسهل عليه فهمها ثم هضمها، دون أن يصاب بمغاص تخمة، من تلك العلوم التي لم تعد تتناغم مع العصر أو تنفع!، ويساعده في فك ما أغلق عليه مـــن طلاســـم موضـــوعاتها، وتـــشفيرات شارحيها، وتلغيزات أحاجيها[3]، وما أكثرها، مما ولع فقهاء المالكية المتأخرون التراســـل فيمـــا بينهم في شأنها، ليس نثراً بل نظماً مرجوزاً !. وهي أقل مفارقاتهم!

ثم التحق تلميذاً زائراً للفترة (1343 هـــ/1923 م – 1345 هـــ/ 1925 م)، ب **مدرسة الشادة الحرة**[4]، التي كان يُدرس بها ابن عمه: الفقيه، الأديب والشاعر والخطيـــب: **أبو**

---

[3] أنظر نظير هذه الألغاز الفقهية التي كان فقهاء المالكية الصحراويون ينظمونها رجزاً في أبيات، ويرسلونها إلى نظرائهم من فقهاء القرويين كأحجيات بحاجة إلى حل، كما فعل السيد ابن محمد المجلسي في فروض التركة في أبيات له:

لفاس الذي لولاه ما كان نختصر ... ولا صدرت في مذهب الأصبح الزمر
أسائل عن زيد إذا عمر أقـــــر ... بإيخائه والموت بالأول استقـــــــر
ومن بعده مات المقر وقد أتـــت ... ذراري زيد تطلب الإرث من عمـــــر
لها إرثه أم لا ترى منه خـــردلا ... أجيبوا جواباً من علومكم الغـــــرر

فأجابه القرويني عبد الله من ذرية القاضي محمد:

إذا عمر قد قال من قبل ما عصر ... بنوه بنو عجن لجمع من غـــــــرر
لهم إرثه إلا فلا ثـــــــم وارث ... لذا المال منهم فانظر الأمر واعتـــبر

أنظر بقايا أمثلة من هذا النوع من التفقه عند الجيلاني لعبدا السالمي قاضي مدينة الداخلة في مقالة له بعنوان: "خدمة المذهب المالكي في الصحراء المغربية" (3: 286) ونشرت ضمن مقالات: "ندوة الإمام مالك" التي انعقدت بمدينة فاس ما بين 9إلى 12 جمادى الثانية 1400 هـ/25 إلى 28 أبريل 1980 م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية في ثلاث مجلدات.

[4] واشتهرت أيضاً باسم: بمدرسة القلقليين لوجودها بذات الحي من المدينة القديمة بفاس.

محمد عبد السلام بن عبد الله الفاسي (1318 هـــ/1900 م – 1402 هـــ/1981 م)

. وهي مدرسة عقدية تأسست سنة 1342 هـ/1922 م، رداً على السياسة التعليمية الفرنسية، ضمن البرنامج الإصلاحي المناهض الذي توخته النخبة المغربية المؤمنة آنذاك، بتشجيع كل من شيخ الإسلام وقاضي فاس الجديد: محمد بن العربي العلوي (1286 هـ/ 1879 – 1384 ه،/1964 م) **.، والسلطان محمد الخامس (ت: 1381 هـ/1961 م)** **، من أجل مقاومة ومناهضة تلك السياسة الاستعمارية المدمرة للعقيدة والوجدان، والماسخة للهوية الإسلامية**[5] {الصورة لمحمد الخامس وشيخ الإسلام وهما يضعان الحجر الأساس لمدرسة حرة.[6] .

ثم التحق ب المدرسة الناصرية الحرة أيضاً، ليدرس بجانب من سيصبحون من رواد الحركة الوطنية المغربية لاحقاً من أمثال: محمد المختار ابن علي بن أحمد السوسي الإلغي

---

[5] هذه المدارس تأسست كرد فعل ضد السياسة الاستعمارية الفرنسية التي كشفت ومنذ البداية عن طابعها الأجنبي العقدي الماسخ للهوية، فكانت بمثابة محاولة من الوطنيين في تطوير الكتاتيب القرآنية التقليدية بغية رفع التحدي المطروح من المدرسة العمومية الفرنسية. وارتبطت هذه المدارس في إطار الوعي الجديد للمغاربة بنوع من المعاقل العقدية من أجل الدفاع عن الإسلام واللغة العربية. وكان للفكر السلفي أثره البالغ في توجيه هذه المدارس إلى أن عمت الظاهرة كل الحواضر المغربية مثل مدرسة "النجاح" التي تأسست بالدار البيضاء سنة 1920 م، ومدرسة "درب العلو" بمدينة سلا التي تأسست سنة 1921، و"المدرسة الأهلية" التي تأسست بمدينة تطوان سنة 1924،..إلخ.

6 الصورة من كتاب الفيلالي : "التاريخ السياسي للمغرب العربي، المجلد 9، ص. 239.

السوسي (1318 هـ/1900 م - 1383 هـ/1963 م) وغيره، ومكث بها إلـــى ســـنة 1346 هــ/1927.

ولما أنشئ نظام الدراسة بجامع القرويين انتظم في سلكه فألتحق بالقسم الثالث النهائي الأدبي سنة 1351 هــ/1932 م، فدرس الشعر والأدب والتصوف والتاريخ إلى أن تـــوج ذلـــك بحصوله على **الشهادة العالمية**، التي سترفض السلطات الاستعمارية الفرنسية تسليمها إياه**!**[7].

وقد حجبت عنه وعن رفيقيه في المقاومة:

أ) الشهيد عبد العزيز بن ادريس العمراوي (1325 هـ/1907 م – 25 شوال 1378هـ ، 25 أبريل 1959م ،

وقد أغتيل رحمه الله يوم الجمعة 25 شوال 1378هـ ، 25 أبريل 1959م لمناهضته لدعاوى التفرقة الثلاث: (1) اليسار والشيوعية، و(2) النزعة الفرانكفونية، و(3) النزعة الشعوبية العرقية المنطلقة من مركز التبشير المسيحي في كنيسة تيومليلين بمدينة آزرو (منظر مركز تيومللين) و(الموقع الخدروف الأخضر على الخريطة) . على يد عصابة الطائفة اليسارية في حزب الاستقلال التي كان يتزعمها يومها كل من المهدي بن بركة ومحمد البصري وعبد الرحمن اليوسفي . بينما كان في طريقه لإلقاء محاضرته، فشدخت العصابة رأسه بالحجارة، ونقل جثمانه رحمه الله وأسكنه فسيح جناته إلى فاس ودفن بالقباب

[7] حجبت عنه وعن رفيقيه في المقاومة: عبد العزيز بن ادريس العمراوي، ومحمد بن إبراهيم الكتاني، إلا إذا ما وقعوا على تعهد يعترفون فيه بخطئهم في المشاركة في التظاهرة التي قامت ضد الظهير البربري لسنة 1348 هـ/1930 م، فرفضوا جميعاً، لتحجب عنهم الشهادة.

خارج باب الفتوح، ولم يحقق في مقتله أحد ضمن الاغتيالات السياسية التي عمت البلد إبان استقلال المغرب.

ب) ومحمد بن إبراهيم الكتاني (1325 هـ/1907 م – 1411 هـ/1980 م)

، الذي، وعلى خلاف باقي الكتانيين المتصوفة، سيتبنى السلفية والمقاومة للاستعمار، حتى أنه ما كان يخرج من سجن إلا ليؤم آخر وعذب رحمه الله أشد العذاب فما هان ولا استكان,

إلا أن يوقعوا على تعهد يعترفون فيه بخطئهم في المشاركة في التظاهرة التي قامت ضد الظهير البربري لسنة 1348 هـ/1930 م.

وهو ما رفضوه جميعهم، فحجبت عنهم الشواهد، عقاباً لهم!

وكانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية قد افتتحت ثانويتي المولى إدريس بفاس و

المولى يوسف بالرباط سنة 1916، بغية تنشئة طبقة وسيطة من أبناء الأعيان كأطر مساعدة لتشغيلها بإدارة الحماية، وتكون في ذات الوقت، بمثابة ذراعها الطويلة إلى أفئدة المغاربة وأداتها في الفيرسة الثقافية[8]، التي ستعمل الحماية من خلالها، على تفكيك الثقافة الإسلامية التقليدية للمغاربة كما بصمهم بها التاريخ، وحملوا لواءها إلى الجوار والعالم، ولمدة تزيد على الألف عام.

[8] أنظر كتابنا: "كيف تمت هندسة فيروس اسمه أدونيس؟". مطبعة برودار، ط. أولى 1419 هـ/1998.

يقول **محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (1291هـ/1874 م ـ 1376هـ/1956 م)**[9]

عن هذه السياسة التعليمية الاستعمارية ، التي خبرها عن كثب، بحكم اشتغاله كنائب للصدر الأعظم في المعارف والعلوم، منذ إنشاء هذا المنصب أوائل سنة 1330 هـ/ 1912 م[10]، وهي سنة فرض الحماية الفرنسية على المغرب إلى أن استعفى من المنصب سنة 1357 هـ/ 1939 م بعد أن عدد الكثير من المفاسد والمساوئ التي أتت بها الحماية الفرنسية[11]:

ولم تكتف الدولة الحامية بهذا السلوك، بل إنها عمدت إلى تربية الجيل تربية تهدف تحقيق مخططها الاستعماري، فظهر على الساحة زمرة من الشباب ممن كانوا كلهم أو جلهم قرءوا في مدارس فرنسية ولعبت بعقولهم تعاليم الفلسفة غير المنقحة، فأفسدت نظرهم في التدين فتركوا الدين وتركوا الصلاة والصوم وتجاهروا بالإلحاد. وكان آباؤهم وأقاربهم، بل المغرب والمشرق في حيرة من أمرهم، وكيف يكون إذا تفاحش الأمر؟. فإنه يكون قضاء على الإسلام!.

قلت: وقد مثل هذا الطابور من أبناء الطبقة المترفة، المغسولي الأدمغة، والمنشئين عقدياً على عقيدة وزير التعليم الفرنسي الشهير، العالماني {أنظر على هذا الموقع:

"الدهرية الدنيوية العَالمَانية والأخلاق

" والماسوني[12] في آن: جول فرانسوى

---

[9] هو صاحب الكتاب الشهير: " "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي". وانظر تكريماً له ورد في "المجلة المغربية" في عدد أغسطس سنة 1932 على هذا الرابط.
http://www.terrevie.net/periodiques/5mensuel/mesuelarabe/majallat.el.maghreb/articles/1932/aout.19 { 32.2/taqrim.hajoui.aout1932.pdf

[10] انتهت توليته الأولى هذه سنة 1332 هـ/1914، وبدأت توليته الثانية سنة 1339 هـ/1921 م التي امتدت إلى سنة 1358 هـ/1939 م، وكلاه التوليتين كانتا تنتهيان مع دخول فرنسا الحرب. وكأن الحماية وإن قدرت كفاءته، لم تكن تثق بولائه!.

[11] أنظر "كناشة"الحجوي، ص. 41 مكرر، المحفوظة بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: 254.

[12] انتسب إلى كرسي الأزاس واللورين (Loge « Alsace-Lorraine). له ترجمة على هذا الرابط
{fr.wikipedia.org/wiki/Jules_Ferry - 77k }

كمي فيري (Jules François Camille Ferry) (1832 – 1893) المعممة في المدارس الفرنسية نفسها[13]، رأس حربة السياسة الاستعمارية في احتلال الأفكار والوجدان بعد أن تمكنت من احتلال الأرض والأوطان، مما أسبغ على المشروع الاستعماري الفرنسي كله، ومنذ البداية، صفة الحرب الدينية الصليبية بدون لبس، خصوصاً بعد أن تنصر سنة 1928 أحد الأبناء المنحدرين من الجالية الجزائرية المستقرة بمدينة فاس، على يد الجاسوس الفرنسي المعروف: ***لوي ماسينيون*** (Louis Massignon) (1883 – 1962) ، الذي سيدعي في نفسه وهو في طريقه للتجسس على الأتراك في ***بغداد***، ما كان قد ادعى قبله: ***القديس بولص*** وهو في طريقه إلى ***دمشق*** {أنظر على موقعنا باللغة الفرنسية: ***لماذا الإسلام؟: موسى أوكام ورؤية القديس بولص***"*Le Rasoir d'Okham et la Vision De* ***St. Paul***"}

والذي سيتشرنق لاحقاً، ضمن دورته الفوعية، ليظهر في صورة مستشرق متأكدم، حال غيره من الجواسيس الذين تخصصوا في الدراسات الإسلامية إبان هذه الحقبة التاريخية الحرجة من تاريخ المسلمين، من شاكلة: "البريطانيين: ***طوماس إدوارد لورانس*** (Thomas

[13] أنظر كتابنا: "الأسطورة وصناعة الأمم الأوروبية في التاريخ: فرنسا نموذجاً"

(Edward Lawrence)(1888 - 1935) الذي سيشتهر بلقب: *لورانس العرب*،

وهاري سنت جون بريدجر فيلبي (Harry St. John Bridger Philby) (1885 – 1960)

الذي سيدعي الإسلام ويتلقب باسم: الشيخ عبد الله ، والهولندي *كريستيان سنوك*

هورجرونج (Christiaan Snouck Hurgronje) (1857 – 1936) 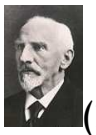 ، واليباني *أوكاوا*

شومي" (Okawa Shumei) (1886–1957) وغيرهم، خلال الحربين العالميتين

الأولى والثانية.

وسوف يتسمى ابن عبد الجليل بعد تحوله إلى المسيحية باسم: يوحنا (Jean) بنعبد

الجليل (*Jean Mohamed Ben Abdejlil (1904–1979)*) [14]، {انظر كتاب: "" (*Jean-*

Mohammed Abd-el-Jalil, témoin du Coran et de l'Evangile)[15] وانظر تفاصيل هذه الردة

على موقعنا تحت عنوان:

---

[14] سوف يشتغل سكرتيراً للبابا في الفاتيكان. وهذا يوضح ضحالة الفهم الديني لدى هذه الطبقة وإلا فهل يعقل أن يتنصر مسلم وله بعض إلمام فقط بالدين!؟

[15] وقد دأبت الكنيسة على الدعاية به أنظر مؤلف:

Maurice Borrmans (sous la dir.), Jean-Mohammed Abd-el-Jalil, témoin du Coran et de l'Evangile. De la rupture à la rencontre, Le Cerf / Ed. franciscaines, 2004, 176 p , وانظر

"أين كانت القرويين وأين كان رجالاتها يوم أن صلى إبليس على مذهب مالك ثم ركب الغمام وارتحل؟: الأباتي جان بن عبد الجليل المرتد".

وقد جاءت ردة فعل النخبة المغربية العالمة على هذا الخطر الداهم، بقدر حجم الفعل نفسه وزخمه، فاستحدثوا على هذا الصعيد التكويني الخطير "المدارس الحرة"، التي سيتدرج فيها علال وزمرة من أصدقائه الوطنيين، ليتزودوا منها بالترياق المحصن وبالزاد الكافي ، الذي سيمكنهم لاحقاً من إفشال هذه السياسة الاستعمارية الماسخة للهوية بذات الأسلحة التي شهرتها في وجوه آبائهم ولم يملكوا لردها يومها قوة ولا حيلة، ليصادفوا بعض النجاح، لكن إلى حين فقط، لأن الاستعمار سيعاود الكرة مرة أخرى لاكتساح المواقع من جديد، بعد أن تمكن من خلال السيطرة على السياسة التعليمية المغربية وبمساندة واضحة من الفاسد المفسد غير مدفوع

الحسن الثاني، لنجد البعثة الفرنسية تفتح مدارس باسمه لتدويخ أحفاد هؤلاء المغاربة، بعد أن انمسخ جيل آبائهم، حال ما يبين الإعلان المدرسي المعاصر التالي.

"كذلكMASSIGNON, ABD-EL-JALIL, *Parrain et filleul (1926-1962),* Correspondance rassemblée et

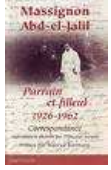

annotée par Françoise Jacquin, Paris, Éditions du Cerf, "Histoire", 2007, 304 p.

1.2) علال وحفريات التقليد والإصلاح في جامعة القرويين

لا شك، أن الجدل الحاد الذي دار بين الإمام **أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي** (ت: **790** هـ) رحمه الله ومقلدة عصره {أنظر على هذه الموقع: ***"صناعة الفقه (7): التقويمية المقاصدية عند الشاطبي"***

، والانتقاد الـذي وجهـه إلـيهم فـي كتابيـه "الموافقات" و "الاعتصام"[16] ظل راهنياً وملازماً لخريجي القرويين، كواقع حال ومآل صعب عليهم التخلص من وصمته، أو الانفكاك من أسر تبعاته. وهو ما تعضده الكثير من الشواهد التاريخيـة المباشـرة وغير المباشرة ، التي ارتبطت بالقرويين ارتباط النعت بالمنعوت والدال بالمدلول.

ولعل أقصر طريق للوقوف على هذا الواقع المر، هو أن يتصفح المرء تلك المقـررات التي دأبت القرويين على تدرسيها، أو الكتب التي اعتمدتها وظلت تحـشو بهـا أدمغـة آلاف

[16] أنظر كتابنا: "(7) صناعة الفقه: التقويمية المقاصدية عند الشاطبي"

الخريجين من طلبتها، مفرخة لتلك الإنسالات المتوحدة في التقليد، كصور طبق الأصل لبعضها البعض، بحيث يكفي المرء التعرف على إحدى تلك الصور ليحكم جازماً على الباقين، دونما حاجة إلى أية تفاصيل أخرى.

ويمكن اعتبار علال الفاسي من هذه الحيثية، وعلى ما سنقف عليه من سيرته، استثناءاً متفرداً من هذه القاعدة، إذا ما قيس بزمرة الأجيال الغفل الذين تعاقبوا قبله على حصير الدرس القرويين وإلى زمانه.

إذ لقرون، ظل طلبة القرويين لا يتمايزون عن بعضهم البعض في كثير، اللهم في حالات نادرة لا تكاد تتجاوز تعداد أصابع اليد الواحدة، وكأنهم إنسالات مختبر، حتى أمكن النظر إلى لفيفهم من أوله إلى آخره، ليس كأجيال متباينة يعقب بعضها بعضاً في التاريخ، بل كجيل واحد فحسب، يكرر نفسه بمعزل عن التاريخ نفسه، بالرغم من اختلاف العصور والبيئات التي عاشوا فيها، والوقائع والنوازل التي تعرضوا لها، إلى درجة أن لو رام إنسان أن يقيم موضوعياً عطاء هذا الجيل المتوحد الممتد في الزمان، من حيث الأفكار الجديدة التي تفجرت بها قرائحه، أو العلوم التي استحدثها، أو الإبداعات أو الاختراعات النافعة التي أتى بها في أي علم بعينه، بالنسبة إلى تعداد أفراده لما وجدها بذوات بال، ولا مما تستحق الذكر أو التوقف عندها.

هذا من حيث الكم، أما من حيث الكيف!، فالمعيار ظل دوماً محكوماً، وكقاعدة، بمنطوق الآية 101 الواردة في سورة المائدة:

﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴿١٠١﴾ ﴾ المائدة: ١٠١

ويكفينا للتدليل على هذا الرأي، أن نضع تحت نظر القارئ، درساً واحداً، نختاره عشوائياً من بين قائمة كل تلك الدروس التي حضرها علال الفاسي برحاب القرويين مع مطلع القرن العشرين[17].

ففي الفقه مثلاً، وهو من أهم العلوم العملية التي أولتها القرويين عناية خاصة لإسقاطاته الوظيفية المباشرة على سوق التشغيل، ضمن المتطلبات الضرورية لشغل مناصب مخزنية مدرة للخيرات وجالبة للنفع العميم! لأصحابها في شغلهم لوظائف: الإفتاء، والقضاء، والحسبة، والوكالة، وأمانة المرافئ، والعدلية..إلخ.، وجدنا علال الفاسي يكابد في هذا التخصص، ما كابد قبله لفيف من الطلبة لا يكاد يحصيهم عد، ومنذ خمسة قرون، في فك ألغاز متن "مختصر الشيخ خليل 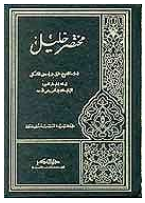 " [18] في فقه الفروع، الذي يمثل في حد ذاته الذروة في الإغلاق والاستعصاء على الفهم!.

وقد تطلب من علال الفاسي، في محاولته لاستيعاب وفك شفرة هذا الكتيب الذي لا تتجاوز عدد صفحاته الثلاثمائة صفحة بالتمام[19]، أن يستعين بعدة شروح مستقلة لكل من:

أ) أبي البركات أحمد بن محمد العدوي الأزهري المصري الشهير بلقب: الدردير (1127 هـ/1715 م - 1201 هـ/1786 م)[20]، وحمل عنوان: "الشرح الكبير على

---

[17] أنظر كتابنا: "أين كانت القرويين وأين كان رجالاتها يوم أن صلى إبليس على مذهب مالك ثم ركب الغمام وارتحل؟".

[18] هو للشيخ أبي المودة ضياء الدين خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب الجندي المصري (ت: 867 هـ/1462 هـ) حامل لواء المذهب المالكي في زمنه. ودرسه علال الفاسي على شيخيه احمد بن الجيلالي الأمغاري، وشيخه الطائع بن الحاج السلمي. (1298 هـ - 1377 هـ).

[19] أنظر "مختصر العلامة خليل" بعناية الشيخ أحمد نصر، المكتبة المالكية (المتن يحتوي على 304 صفحة).

مختصر سيدي خليل". وأخذه علال عن شيخ السلفية المغربي الشيخ محمد بن العربي العلوي.

ولهذا الشرح حاشية للشيخ محمد الدسوقي المصري[21] .

ب) وأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن علي الخرشي[22] المصري (1010 هـ/1601 م - 1101 هـ/1689 م) ، وله كتاب: "شرح على مختصر سيدي خليل" وقد قرأه علال على شيخه القاضي عبد الله الفضيلي.

ت) وعبد الباقي بن يوسف بن احمد بن شهاب الدين بن محمد بن علوان الزرقاني المصري المالكي (1020 هـ/1621 م - 1099 هـ/1687 م)[23] كما قرأ شرحاً على هذا الشرح الأخير وهو لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الرهوني

---

[20] له كتاب: "الشرح الكبير على مختصر سيدي خليل". وأخذه علال عن شيخ السلفية المغربي الشيخ محمد بن العربي العلوي (1286 هـ/ 1879 - 1384 هـ/1964 م).

[21] صورة الغلاف لحاشية للشيخ محمد عرفة الدسوقي على شرح أحمد الدردير العدوي على مختصر العلامة خليل، وضح فيها ألفاظه وفكك عباراته!!!!!!!

[22] نسبة إلى أبو حراش وهي قرية من البحيرة بمصر.

[23] له كتاب: "شرح الزرقاني على مختصر خليل" وأخذه علال عن شيخه القاضي عبد الله الفضيلي.

الوزاني (1159 هـ/1746 م - 1230 هـ/1815 م)[24] ، وحمل عنوان "**أوضح المسالك وأسهل المراقي إلى سبك إبريز الشيخ عبد الباقي**" وأخذه علال على شيخه القاضي **عبد الله الفضيلي**. هذا، بالإضافة إلى شرح آخر وهو: "**الفتح الرباني لما ذهل عنه الزرقاني**" وألفه أبو عبد الله محمد بن الحسن بن مسعود البناني الفاسي (ت: 1194 هـ/1780 م) ، وقرأه علال أيضاً عن شيخه القاضي **عبد الله الفضيلي**.

فهذه كانت مراقي علال الفاسي لفك لغز المختصر الخليلي، وإن من دون طائل!

ولو شاء **علال**، وبيته بيت علم، وخزانة والده وبني عمومته تحت يده ورهن إشارته، وكان له من فراغ الوقت، وتصميم العزم وعلو الهمة ما يكفي، لاستطاع الاستزادة من تلك الشروح والشروح على الشروح إلى ما يفوق الألف والخمسمائة شرح وتعليق، بين مطولات ومختصرات، وبين منظوم رجزاً منها، وبين منثور[25]، لكن دون أمل مع ذلك، لا في أن يحل ألغاز ما أغلق عليه، ولا في أن يفتح عليه ليزداد بذلك فهما لموضوعه، أو الإحاطة به!، على

---

[24] له كتاب: "أوضح المسالك وأسهل المراقي إلى سبك إبريز الشيخ عبد الباقي" وهو شرح على شرح الزرقاني على المختصر الخليلي. وهو نموذج لشرح الشرح أو ميتالغة الميتالغة! وأخذه علال عن شيخه القاضي عبد الله الفضيلي.

[25] لقد عد بعضهم عدد الشراح الذين تعرضوا لشرح المختصر الخليلي نثراً، ونظماً، ومطولات، ومختصرات، فوجدت تنيف عن 1570 تأليفاً!. وقد أورد هذا العدد القاضي الجيلاني لعبدا السالمي قاضي مدينة الداخلة في مقالة له بعنوان: "خدمة المذهب المالكي في الصحراء المغربية" (3: 265) ضمن "ندوة الإمام مالك". وقد تقدم كمرجع.

ما لاحظ السلطان المغربي ***عبد الرحمن بن هشام*** (1204 هـ/1790 م - 1276 هـ/1859 م)

رحمه الله، ومنذ قرن[26]!.

وظاهر هنا أن درجة الاستيعاب والفهم ظلت تعمل بقانون معكوس، حيث أنه كلما ازدادت المطالعة في هذه الشروحات والتحشيات عليها، كلما تغبشت الرؤية وتعسر الفهم!.

ولعل أقل مفارقات هذا الكتيب العجيب المديد العمر، زيادة على ما سبق، هو كونه لم يسطر متنه يراع أحد الخريجين من علماء القرويين ولا شارك في تبويب موضوعاته أحد مبرزيهم المشاهير، وإنما هو مستورد كله بفصه وفصله من **المدرسة الشيخونية** بمصر[27] التي نشرت متنه قبل سقوط غرناطة سنة 1492 م بأربعة أو خمسة عقود![28]، وبعد مرور أكثر من قرن على إصدار ***أبي إسحاق الشاطبي*** رحمه الله لكتابه المعلمة: "***الموافقات***"!.

بل لم يكن في مقدور طلبة القرويين ذهنياً!، على ما سيأتي تفصيله، فهم هذا المتن سوى من خلال شروح أزهرية أيضاً، وليست منتجة من داخل القرويين!.

وأقصى ما بلغه منه جهابذة القرويين وحذاقهم، ممن تعرضوا لفهمه أو شرحه، هو أن جعلوا بينهم وبين متنه المباشر حرزاً وواسطة، قرءوا من خلالها ما لم يستطيعوا قراءته مباشرة، كما فعل ***الرهوني*** و***بناني*** أعلاه من خلال شرحيهما على شرح ***الزرقاني***.

---

[26] أنظر نص رسالته الموجهة إلى قاضي فاس المحررة بتاريخ 12 محرم 1261 هـ/10 يناير 1845 م، فيما يلي..

[27] نسبة إلى المدرسة الشيخونية أكبر مدرسة مصرية في زمان المؤلف التي كان يدرس بها..

[28] سقطت غرناطة سنة 897 هـ/1492 م.

وهو التقليد الذي سيغالب الزمان ويتبناه بدون مراجعة أو مساءلة، كل فقهاء القرويين الذين سيتعاقبون على كراسيها، منذ تبني الفروعيات المالكية من جديد أيام دولـــة *بنـي مرين*، نكوصاً وردة عن تأصيلية الدولة *الموحدية*، التي تبنت بدون مواربة، اعتماد الأصلين فحـــسب: *القرآن* و*السنة*، ودعت إلى الاجتهاد المطلق ونبذ التقليد[29].

ويرجع وزر تثبيت العمل بالتقليد مجدداً في الفقهيات وباقي العلوم الأخرى إلى سياســـة *السلاطين المرينيين*، الذين حكموا المغرب العربي خلال الفترة (668 هـــ/1269 م- 870 هـــــ/ 1465 م)، من دون أن يتبلور لديهم مشروع تجديدي أو رؤية منظورية متطورة، على خلاف ما سبقهم به *المرابطون* الذين تميزت فترة حكمهم (473 هـــ/1054 م – 542 هـــ/1147 م) بكونها أزهـــى عصور الفقه المالكي، أو *الموحدون*الذين أقاموا صرح منظورهم الفقهي على نقيض المرابطين، من جهة التأصيل خلال فترة حكمهم (542 هـــ/1147 م – 668 هـــ/1269 م).

وتعتبر فترة حكم المرينيين، مقارنة بمن سبقوهم، فترة تقليد ثانية بامتياز في الفقهيات المغربية، على غرار ما كان سائداً، أول دخول مذهب مالك إلى القيروان والأندلس أيـــام دولـــة بني أمية الثانية في الغرب الإسلامي في القرن الثالث الهجري.

ثم انتقلت هذه العدوى في التقليد الفقهي النوازلي الجامد كعرف، إلى *دولة الوطاسيين* (875 هـــ/ 1471 م- 960 هـــ/ 1552 م)، ثم *دولة السعديين* (960 هـــــ/1553م – 1069 هـــ/ 1659 م)، ثم *دولة العلويين* (1070 هـــ/1669 م – ....)، وإلى يوم الناس هـــذا بـــدون تغيير ذي قيمة أو أثر.

---

[29] بلغت دولة الموحدين أوج مجدها خلال فترة (1160 - 1212 م).

انتهى وتليه الحلقة الثانية:

السلاطين العلماء ومحاولة إصلاح القرويين